"أرض مجهولة" لغسان سلهب

كآبة اللامنتمي

"إروس مريض، لذا الإنسان غير مرتاح (...)
"العالم حولنا وفي داخلنا غير مستقر (...)
"لا يحتاج الممثل السينمائي إلى أن يفهم، بل يحتاج إلى أن يكون (...)
"يتحوّل الممثلون آلياً إلى حصان طروادة في مكان يفترض أن يكون قلعتي (...)
"الممثل عنصر في مشهد، أنظرُ اليه كما انظر الى شجرة، إلى حائط، إلى سحابة (...)".

ميكيلانجلو أنطونيوني

هي متاهة، سديم، خواء، ركام، فوضى جحيمية، تلك الارض المجهولة التي ينعى غسان سلهب هباء عيشها المتناثر، المضطرب، المتشظّي في كل اتجاه. شخوصه بلا وجهة، بلا يقين، بلا نقطة ارتكاز، بلا زمان أو مكان. يتخبّطون في عدم لا يضاهيه إلا "العيش" المفرغ من معانيه وانسداد آفاقه على الضوء والخلاص وأمل الانبعاث. كأنهم في رحلة أوليس، إنما داخل المتاهة وفي شركها. لذا تلك الكآبة المدلهمّة التي تغلّف المدينة والأبدان الهائمة في جحيم قبحها وفراغها وضجيجها وغبارها وهوائها الملوّث الجاثم ضبابةً على صدور الأرواح المختنقة. شخوص "ارض مجهولة"(*) لا يتنفسون بل يزفرون قهراً واحتجاجاً ورفضاً وتمرّداً، ينضحون ألماً وفراغاً وضياعاً، حتى نشوات الجنس صرخات ألم وتعب وطلب نجدة، ولا معنى بعدئذ في مدينة تحتضر وتلفظ مع اولئك انفاسها الأخيرة.

هل المدينة حقاً في موت؟

الأرجح انها كذلك، بحسب غسان سلهب، الذي لا تبصر رؤيته قبساً، ولو من بعيد. لا شيء يلوح في أفق العيش المسطوم. كأنما جدارية الواقع ذريعة للافصاح عن ضيق وجوديّ يرتمي في حضن العدم ولا يعزّيه البحث عن معنى أو عن سبب للأمل والقبول. الرؤية هنا شبه قبليّة (أپريوريّة) سابقة على أحوال الوطن والمدينة وماضية إلى أبعد منهما. كأنها كآبة رؤية ميتافيزيكية متأصّلة تنطلق من هواجس "أرض مجهولة" (غير بسيطة في أي حال) إلى "أراضٍ مجهولة"، أي بقاع شتى يضيق فيها العيش كذلك ويَبرم، مثلما هو في بيروت والوطن السعيد برمّته. تلك الأرض المجهولة وإن تعيّن مكانها (هل تعيّن على نحو حاسم؟) هي امتداد لـ"أرض مجهولة" شاسعة، مترامية الأطراف، لعلّها تبقى مجهولة وعدماً قاتماً، سواء اتجهت عين الكاميرا إلى السماء أو فتحت بؤرة عدستها على سعة البحر والمحيطات.

لكن فلنعد الى بيروت المنطلق.

ريح قوية تعصف بشجرة عملاقة. لقطة افتتاحية كأنها بداية التكوين، النفثة "الإلهية" التي لن يكون منها خلق ووجود، بل عدم جديد يلي عدماً سابقاً، بيد انه مأهول بالأبدان التائهة المعذّبة. ريبة الانتماء (إلى الوطن، فالوجود من بعده) إلماعة سريعة تتخلل الجنيريك حيث تملأ الشاشة افادة اخراج قيد للمخرج نفسه، طارحاً بدءاً من ذاته سؤال الانتماء الى الوطن ومعناه، ممهداً للسؤال عينه لدى الأخرين، وجميعهم الـ"ألتر إيغو" خاصته، يتوزعون هواجسه ويتقاسمونها. اوّلهم ذاك المذيع لنشرات الأخبار (كارلوس شاهين) في الاستوديو، يلقي ما لديه من فجائع الأحوال السياسية والأمنية وتفاهاتها، في حيادية تامة تكاد تساوي اللاخبر. وصوت الراديو متكرر الحضور في "سمفونيا" الضجيج التي تملأ المدينة فالفيلم. الى الدليلة السياحية ليلى (كارول عبود) الأكثر تيهاً واضطراباً واحساساً بالهباء، تضنيها رتابة "المهنة" والشرح المتكرر لسيّاح من كل لون وبلا وجوه، حتى لفريق من جنود الأمم المتحدة العاملين في الجنوب وهم في الحقيقة سيّاح أكثر منهم حماة أمن وحدود. وسيّاح ليلى "يفلتون" ذات حين، صوب النهاية، مثل قطيع شارد بلا راعٍ. وليلى هذه محور في الشريط، "بطلة" او نقيض البطل، والأشد إفصاحاً عن صورة المتاهة والضياع الناجز والتخبّط في العلاقات العاطفية (تمنّاً، استطراداً، على جرأة تعرّيها) العابرة، خياراً إرادياً، بعد فقدانها معنى الاستقرار والالتزام، والشخصية مألوفة منذ نساء "الموجة الجديدة" وسينما أنطونيوني الى نساء كاترين بريّا ومايكل هانيكه (إيزابيل هوپير في "عازفة البيانو") وآموس كوليك. ومثلها صديقتها ثريا (عبلة خوري) السحاقية بلا اشارات واضحة والتي تحمل اجزاء انشائية "أدبية" ثرثارة من خطاب المخرج حول فراغ المدينة، ومن نظرته الساتيرية الهازئة بالدين ومظاهره. الى المهندس المعماري نديم (وليد صادق) الذي يعيد تكوين المدينة وتشكيل تقسيمها المدنيّ على الكومبيوتر، وفق ما تشتهيه عين حضارية مثالية ووجدان وطني وحدويّ يرفض التقسيمات الطائفية والمناطقية وهجمة البولدوزر الذي يثلم ارض مدينة تزداد قبحاً. الى ذاك العشيق المثالي (ربيع مروّة) الذي يبدو آخر المتمنطقين بالمنطق، منطق الانتماء ومنطق العلاقة العاطفية المستقرة المبنية على الحب والالتزام والحنين (كل ذلك يتجلى في مشهدين اساسيين يجمعانه بليلى) وإن يكن محكوماً بدوره بالتيه وسؤال الإقامة أو الرحيل. الجميع، على شاكلة صاحب الفيلم، تؤرقهم فكرة الإقامة او الرحيل، الانتماء أو غياب معانيه، وهل هذا وطن يستحق ان ننتمي اليه

ربيع مروة وكارول عبود في "ارض مجهولة" لغسان سلهب، ظلال تائهة.

أو لا يستحقّ؟ وهل يسهّل ذاك الانتماء على شبابه ومواطنيه أو لا يفعل؟ حتى الصين أضحت احتمالاً مطروحاً للهجرة، لا أميركا وكندا واوستراليا وأوروبا فحسب. الخادمة الفيليبينية نفسها (إلتفافة إنسانية جميلة يحملها الفيلم) تَسأل عن سبب اختيارها لبنان، هذا "الجحيم الرائع" الذي يودّ قاطنوه مغادرته!

وهذه المدينة اليباب ممّ تتكوّن؟

من الضجيج القاتل أولاً، شميلة من الأصوات من كل نوع: ورش إعمار تصمّ الأسماع، أذان من قبب المساجد يعانق اجراس الكنائس في خليط "مقدس" هجين لا يرتقي بنا في المحصلة الى النعيم بقدر ما يهوي بنا الى الجحيم، أبواق سيارات، رنين هواتف محمولة، أصوات إذاعات متعددة... واذا عمّ الصمت ليلاً في الشوارع المقفرة والمعتمة فكأنه صمت القبور وظلمتها. والمدينة حانات ليلية تكمل فراغ نهارات التيه الموحشة، لا فرح فيها ولا تواصل، بل زمر الى البارات تحتسي الخمور وتنفث السجائر بنظرات فارغة وبلا وجهة نظر محددة. وآخرون في الغرف الضيقة في عزلتهم يرندحون أو يخالون أنهم يعملون أو يتمددون كالجثث الهامدة فوق أسرّة العشق الباردة، أو يهيمون في الشوارع التي يعبرها جنود حفظ الأمن في الاتجاه المعاكس. في المدينة اتجاهات متعاكسة. لا يسير الجميع في اتجاه واحد، مثلما لا يبلغ الراكضون على الكورنيش البحري وجهة معينة. ووسط ارض "الإعمار" تقف أبدان مهدمة. ثمة مدينة من حجر ترتفع، وأخرى من بشر تهوي. انها جدلية البشر والحجر مرة أخرى، انما في استعارة ذكية مبطنة غير مباشرة معظم الأحيان وإن سقطت أحياناً أخرى في الخطاب المباشر.

ماذا عن مزايا "أرض مجهولة" الفيلم؟

بنيته الفسيفسائية (الپازل) الذكية والمتينة رغم تشظّيها وانفلاشها اللازماني واللامكاني، وتماسكها القويّ رؤيةً رغم تيه أبدانها (لأن بشرها يكادون لا يكونون بشراً بل مجرّد ظلال متنقلة)، وعمقِ وجدانها الصامت غالباً رغم فيض الكلام المباشر الذي يودّ أن يكون پازولينياً (تيوريما) حارقاً.

مناخ الكآبة الآسر الذي ابتدعه ضوء مدير التصوير جاك بوكان مغلّفاً الشريط بغمامة كامدة تشي بغمامة الروح وانقباضها لدى كل الشخصيات. بيروت هنا كما لم نشهدها قط من قبل. والصورة بديعة، أنيقة، فصيحة الوشاية بتلك الكآبة الرابضة فوق صدور المدينة وظلال ناسها التائهين.

الشريط الصوتي البديع المتيقظ في أسلوب جاك تاتي (مع خلوه من دلالات الطرافة أو اللذع الناعم) وڤيم ڤندرز لنبض بيروت وصخبها وامتزاج عناصر ضجيجها القاتل، والمقترن مراراً بموسيقى تصويرية جميلة (عبر تدخل الكمان خاصة) لتوفيق فرّوخ تبلغ ذروة تعبيرها في مشهد السيارة تعبر المدينة لحظة الغروب فتتراكب الصور وتدلهمّ السماء ويعلو صوت الكمان فنخال انفسنا في عوالم ڤندرز داخل برلينه المدمرة والمجهولة.

الممثلون المستسلمون للتوجيه "الانطونيونيّ" بعدم التمثيل والحفاظ على حيادية مشاعرهم، ويتراوح حضورهم بين المشعّ (كارول عبودِ ووليد صادق) والمقبول والمكتشَف. كأنهم مجرّد عناصر تحمل العناصر المشهدية الأخرى، كأنهم غيمة أو شجرة أو بحر أو سماء أو طريق. كأنهم ظلال تتحرك في ظلمة العدم.

القطع (أو البتر) القاسي في المونتاج (التوليف انجزته غلاديس جوجو)، وهذه لغة سينمائية رفيعة، متملكة، عارفة. ومبهرة تلك الانتقالات العنيفة من مقدسات الى مبتذلات، ولقطات القطع التي يلمع فيها الكثير مما لا يحصى، واعشق لقطتين تحديداً: رأس ليلى من الخلف في "كونترجور" أمام النافذة العريضة وتهبّ موجة عاتية تصفعها. وعلم "حزب الله" يتحول (في لؤم خبيث، ولا أدري مبرر ذلك) الى ظل بلا معالم على الأرض!...

• • •

ويا صديقي السينمائي الموهوب غسان سلهب، استأذنك بعد هذه القراءة النقدية لـ"أرض مجهولة" طارحاً عليك بضعة أسئلة، قد تكون خاصة، لكن الإجابة عنها مفيدة لنا وللفيلم.

هل أنت حقاً على هذا القدر من الاكتئاب في بيروتك أو أرضك المجهولة؟

ألا تخشى على نقمتك المحقة ونظرتك الحانقة، المستهجنة، المتمردة، الفاضحة، أن تنقلب في أقصى تطرّفها إلى حقد شخصي نزق على فكرتي الانتماء والوطن؟

سواء لم تشأ أن تكون منتمياً الى هذا الوطن – الذي لم تعش فيه كفاية على ما يعلم الجميع – أو رغبت في أن تكون "مواطناً عالمياً" أو مواطن لا شيء، ألا تعتقد ان عدميتنا الانسانية يسعها ان تغير (عبر السينما التي افترض انك تؤمن بها) أكثر من عدميتنا الوحشية المدمرة؟

إذ بلغني من الفيلم افتتانك بالألحان البيزنطية أود ان أسألك ممازحاً: هل تبغي أيها اللامنتمي أن تكون ارثوذكسياً؟

جورج كعدي

(*) عرض في افتتاح مهرجان "أيام بيروت السينمائية" المستمرّ إلى ١٣ تشرين الأول الجاري في صالتي لا ساجيس ومونو، الأشرفية، وهو فيلم لبناني من إنتاج فرنسي ("أغات فيلم" و"جي أش فيلم" و"آرتيه")، ولم يتقرر حتى الآن موعد توزيعه محلياً وإطلاقه في الصالات اللبنانية. يذكر أن "أرض مجهولة" عرض في مهرجان كانّ الأخير ضمن تظاهرة "نظرة ما" الموازية للمسابقة الرسمية.